صراع الذات بين الرغبة والاغتراب في رواية شتاء البحر اليابس لوليد إخلاصي

م.د. بشار إبراهيم نايف
مديرية تربية نينوى / معهد إعداد المعلمات

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٨/١١/١٧ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٩/١/٢٢

ملخص البحث :

شتاء البحر اليابس من الروايات التي قدمها لنا وليد إخلاصي ضمن مجموعة قصص وروايات ومسرحيات، شغلت حيزا في الأدب العربي بحكائيتها المتخمة بالشعرية عبر صورها وانزياحاتها، ومضمونها الذي عالج به قضايا المجتمع العربي، وكان هذا سببا في اختيارها للبحث والدراسة، وكان ما شدني إلى هذه الرواية أنه يمكن إخضاع المضمون فيها إلى أدوات متنوعة بوصفه جسدا نصيا يثير شره الناقد ويسيل لعاب قلمه، ومن بين تلك الأدوات اخترت ثيمتي الرغبة والاغتراب ظنا مني أنهما الأنسب في الدخول إلى النص والتفاعل معه عبر الصراع الدائر بين الأنا الراغبة والأنا المغتربة.

ورواية شتاء البحر اليابس هي فصول خمسة اتخذت لها مسميات متعددة(ينبوع الحزن، لوتشيا والذكرى، مسرحية قصيرة، القطار المسافر بعيدا، حفلة التتويج) ولدت أحداثها في زمن واحد ومكان واحد. ومع تنوع أحداثها وتعدد شخصياتها، إلا أنني أجدها تعمل على شكل واحد من الصراع، لذا جاء البحث بعنوان (الرغبة والاغتراب في رواية شتاء البحر اليابس) وقد اعتمدت على وصف الثيمتين والتطبيق عليهما عبر استحضار الشواهد التي أفيد منها، وابتعدت عن كثرة التنظير الذي أخذ مساحة واسعة من كتابات النقاد، وحاولت عبر فصول الرواية الخمسة استكشاف الحالات التي شكلت محوري الصراع(الرغبة ـ الاغتراب) واختتمته بخاتمة بينت فيها جملة من الأمور التي بنى عليها وليد اخلاصي روايته وتطرقت من خلالها لفكر الكاتب ومعالجاته لقضايا المجتمع. وأخيرا فان ما قمت به ليس أكثر من محاولة قرائية في متن أصيل من متون الإبداع العربي، وأدعو من الله التوفيق.

Desire and Expatriation in Ikhtasse's Novel "Dry Sea Winter"

Dr. Bashar Ibrahim Naef

Institute For teachers Qualification

Abstract:

Dry sea winter is considered one of the creative works of the well-known writer Waleed Ikhlasee. It occupied remarkable place in Arabic literature for it's poetic tales, creating new language, as well as its themes that dealt with Arab society problems. All these reasons were enough to make his works chosen for study and research. What motivated the researcher to choose this novel is that its context could be subject for many instruments and its contextual body inspired critics. Among these instruments I have chosen the desire and expatriation themes, since the researcher considers the most convenient introduction to the text and interaction with it is through the conflict that occurred between the desired (I) and the expatriate (I).

Dry sea winter novel consisted of five chapters with different titles (Sadness spring, Lutchya & the remembrance, short drama, The traveler train, Crowning party), the events of this novel happened at one place and time.

In spite of it's events diversity and the multiplicity of it's characters, The researcher have found that it works on one form of the conflict. For this reason the title of the research came as (desire & expatriation in dry sea winter novel). I depended on the description of the two themes employing their application by taking into consideration the use of their evidences. The researcher got away from theorizing which took wide area by the critics attempting through five chapters to discover the cases which made both axes of the conflict (desire – expatriation). The researcher concluded his research by clarifying many issues that Ikhlasee has built

his novel on. Also the researcher tackled the writer thinking and his treatment of the society questions. Finally, what the researcher have done is not more than a reading attempt for one of the original texts of the creative Arabic literature.

المقدمة

قد يتعالق السبب والمسبب في جدلية أيهما يسبق الآخر، حينها تشتغل اللغة الافتراضية على أدوات تبحث في المقروء لتكشف عن خباياه وصولا إلى فحوى التجربة التي أراد إيصالها كاتب النص لنا، ويبقى التميز في القدرة على النجاح في كشف خيوط التواصل الممتدة بين المرسل والمتلقي، وعبر هذا النجاح ستولد الشعرية بوصفها عملا إبداعيا لا يقف عند حد معين، وهذا الأمر يطرح أمامنا مسألة البحث عن أدوات تكون قادرة على فك شفرات النص، على أن لا نغفل مسألة مهمة تكمن خطأ في قصور البحث في شكل النص فقط دون التوغل في المضمون وكشف الثيمات التي عمل عليها النص، وقد نجد في تفاعل تلك الثيمات وما تفرزه من إشارات عاطفية تتغلغل في أعماق الذات إبداعا مأخوذا من عمق التجربة وصدقها في التعامل مع قضايا المجتمع عبر صراع (الأنا) و(اللا أنا)، وليس بالضرورة أن يحمل الصراع عداء ينهل من ينبوع التفكير بالبطش والتدمير، بل إننا نجد في أحايين كثيرة صورا لصراع يحاول قلع الدغل وتعبيد الطرق تمهيدا لولادة جديدة تتمخض من رحم الحزن واليأس، حينها تضعف الفوارق وتضمحل الفواصل بين الثنائيات، مما يصعب علينا البحث في أيهما يسبق الآخر ويلزمنا التفتيش عن مفاتيح أخرى للنص في محاولة الكشف عن نوع الصراع المتأزم في الذات. ورواية شتاء البحر اليابس لوليد إخلاصي تعتمد أساسا على مضمون يتشكل من ثيمتي (الرغبة والاغتراب) وهذه الثنائية شكلت صراعا عنيفا داخل الذات، جعلت منها ذاتا قلقة مضطربة تسعى إلى التعويض في كل مرة تصطدم فيها بالآخر، وغالبا ما يكون الآخر سببا لتعاسة الذات واغترابها، ومع هذا فهي تبحث من جديد عن رغبة جديدة تخلق لها حياة أخرى قد تجد نفسها فيها، من دون أن تنسى تجاربها السابقة.إذ إن الرغبة عاطفة لا تهدأ ..وهي تستمر وتتطور بعملية النفي المتتالية،التي تحقق كينونتها وارتباطها بالحياة ، كما أنها تحقق ذاتها عبر خصومات متعددة، أو رغبات هاربة، مما يولد سلسة من خصومات الذات مع نفسها، خصومة يفرزها عناد الواقع المعقد الذي يسير عكس اتجاه الرغبة، وفي المقابل نجد "إن منطق الرغبة جدلي، وإنها لا تكون أبدا ثابتة، متكررة أو واحدة، إنما تحظى كرغبة مباشرة، تستهلك موضوعها وتدمره، وحينما يتحقق الإشباع تستفيق ثانية، ليجد الإنسان نفسه، ليس أنا راغبة، ولكن عبدا

للرغبة، محكوما بمنطقها المباشر "[١] . هكذا ينشأ الصراع من رغبة واغتراب يعتملان داخل الذات في وقت واحد، من كينونة الرغبة التي هي قوة نفسية تولد من غياب إشباع حاجة، أو إشباع يستهلك موضوعه، وتتفاقم عندما تكون الحاجة موضع معارضة، فالرغبة تتغذى بالموانع والممنوعات.[٢] ،وعلى هذا نجد أن الرغبة "تفترض بالضرورة حالة من عدم الإشباع، تعطي للحياة العاطفية طابعها العام وتشكل مصدرا أساسيا للمشاعر والانفعالات"[٣] وتتأزم تلك المشاعر حينما تكون المعارضة عنيفة لا تقوى الذات على تحملها، حينها يولد الاغتراب بوصفه نشاطا بشريا مشوها يجرد الإنسان من شخصيته ويوصله إلى العزلة والفقدان، ويضعه أمام قوة عدائية تحاول السيطرة عليه، الأمر الذي يجعله ينظر بتلك العدائية إلى كل ما يحيط به، كما أن فقدان الحب يفضي إلى اغتراب الإنسان عن ذاته الأصلية والالتجاء إلى ذات مزيفة، ويصل التزييف إلى تفكيره وشعوره [٤] كما " أن التطلع إلى أهداف غير قابلة المنال، يعني الحكم على النفس بالشقاء، وقد يبقى الفرد في حالة انتظار لبلوغ غايته، ولكن فشله المتكرر لبلوغ تلك الغاية يؤدي إلى شعوره بمرارة الحرمان، ويتعزز هذا الشعور بتكرار تجربة الفشل عبر الماضي مما يقلل أو يدمر أمل الفرد بالنجاح لتحقيق ذلك الهدف في المستقبل، أو حتى توقع الاقتراب من ذلك الهدف مما يعمق من حالة اليأس واللا معنى والخواء والاغتراب لديه "[٥].

إن الصراع في رواية شتاء البحر اليابس صراع مهادن لا يؤذي إلا الذات التي تحمله دون أن يكون له تأثير عنيف على المجتمع المحيط به، وهو صراع يتشكل من اغترابات حصلت من فشل رغبات وقف الآخر ضد تحقيقها مما يجعل الأنا تبحث عن رغبات جديدة تنتهي هي الأخرى بالفشل وهكذا، ويرسم لنا عنوان الرواية صورة الصراع منذ البداية، إذ يجمع بين نقيضين (شتاء . اليابس) يتوسطهما البحر كناية عن الذات القلقة المضطربة، والحائرة بين هذين النقيضين، فالشتاء بوصفه (متوقعا) مرجوا لإمداد البحر بالماء وهذا المتوقع يناظره في الرواية الرغبة بوصفها هي الأخرى (متوقعا) مرجوا لتحقيق الحياة الطبيعية لشخوص القصة، يقابله في ذلك(اليابس) بوصفه نتيجة لفشل (المتوقع) يناظره في متن الرواية الاغتراب بوصفه نتيجة لفشل الرغبة، ولأنها نتيجة قابلة للتغير تتحول النتيجة إلى سبب جديد يبحث من خلاله اليابس إلى شتاء آخر، وهكذا تتشكل عندنا سلسلة من الرغبات والاغترابات تقف الذات حائرة

(١) الرغبة واستراتيجية تبديد القلق: محمد رمصيص(انترنيت)
www.ofoug. com

(٢) المعجم الموسوعي في علم النفس،نوربير سيلامي وآخرون: ترجمة: وجيه أسعد،١٢٥٢

(٣) الموسوعة الفلسفية العربية: معن زيادة ،٤٦٠

(٤) بنية القصيدة العربية المعاصرة : د.خليل الموسى ، ١٥٠

(٥) ثنائية المكان . الاغتراب في أدب الرواقصصي يحيى الطاهر، محمد ذنون الصائغ، ٢٩٥

بينهما، وعلى أثر ذلك يتولد الصراع بين حاجة الذات لحياة جديدة وبين حاجتها للانطواء والانعزال عن المحيط، إذ "تنشأ الصراعات في مواقف حين يتنافس هدفان أو حاجتان أو نوعان من أنواع العمل ولهما نفس قوة التأثير تقريبا ويسببان في الكائن العضوي شعورا بالانجذاب نحو مهمتين مختلفتين مما يترتب عليه شعور بعدم الارتياح، وبما أن اختيار أحد البديلين في موقف الصراع يحجب اختيار البديل الآخر أو على الأقل وقتيا فإن الصراعات تعتبر أحيانا احباطات"(٦)

تتشكل الرواية كما ذكرت من فصول خمسة، أولها (ينبوع الحزن) "(٧)، والجامع لهذه الفصول شخصية عزيز والدمى التي يصنعها، لاسيما الدمية سوزان، كونها كانت تخليدا للفتاة الصغيرة التي أحب أمها ليلى وخسرها في لحظة من لحظات الأنانية الذكورية. إن فشل الرغبة عند عزيز في إقامة علاقة طبيعية مع ليلى أوجد اغترابا في نفسه جعله يشعر برتابة الحياة ويضجر حتى من صوت ساعته،" كان الرجل يستمع إلى ضحكات ساعة يده عليه، جنية تلك الآلة تهرع به نحو الغد، وهو لا يريد أن يصل أبدا"(٨) ويرى أنه ليس بحاجة إلى يده " هذه اليد التي تصنع الدمى الصغيرة المنتشرة في أرجاء المكان، القابعة في سكون الموت الذي لا معنى له، هذه اليد تحتاج إلى قطع ثم يرميها إلى طين الشارع ويستريح"(٩). لقد كان حبه لليلى نتيجة فشل رغبة قديمة تمثلت في إقامة علاقة طبيعية مع امرأة تحبه ويحبها وفشل تلك الرغبة يعود لأسباب خرجت عن إرادته، لذا شكلت له اغترابا أوليا " جاء عزيز بفتاة ذات ليلة، أراد أن يهبها حبا، يأخذ منها حبا، لكنها نفرت منه، وعندما نظر إلى المرآة الصافية أدرك سر هروبها فكسر المرآة"(١٠)، ليلى أدخلته في صراع مع ذاته بين رغبته واغترابه "دوى في عالم المرآة صوت: لا يمكن لها أن تحبك، لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك"(١١) غير أن صورته ماتت في اغماضة عينيه واختفت فراح يتوسل المرآة "ألا يشفع لي حقي بامرأة؟، وكان الصوت مازال: لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك!، صرخ، تحركت يده في الهواء لتستقر في قلب المرآة، سال دمه فيما هو يردد : لكني أحب تلك المرأة، أحب تلك المرأة"(١٢)، كان هذا الحب انقلابا في حياة عزيز وثورة على اغترابه "قطع الرجل الوحيد مسافة طويلة امتدت مابين ولادته وتلك اللحظة، والآن جعل يقارن الولادتين

---

(٦) مدخل إلى علم النفس، لندال دافيدوف، ٦١٨

(٧) حكايات الهدهد وروايات أخرى : وليد إخلاصي، ١٧

(٨) م.ن :١٨

(٩) م.ن:١٨

(١٠) م.ن :٢١

(١١) م.ن :٢٣

(١٢) م.ن:٢٣

بعضها ببعض"[١٣] و"لأول مرة غنى عزيز لحنا سمعه منذ سنين، تذكره بينما يوزع المحبة على كل الدمى"[١٤]، في هذه اللحظة خمدت نار الاغتراب وهادنت الذات كل من حولها وراحت الرغبات تتفتح كزهور جميلة "وتيقظت أحاسيسه المتحفزة لصوت أقدام على الدرج الخشبي، ظل كما هو وراء الباب تنتظمه رغبتان، أن يفتح الباب للقادمين، أو يقف هكذا ألف عام وكأن أثقال سعادة رائعة حطت عليه"[١٥]، غير أن هذا الأمر لم ينه حالات القلق والخوف عنده فتذكر جدته وهي تعيره بخلقته وتقول لأمه " أكان وحامك على قرد"[١٦] ، لقد كان لكلام جدته تأثير سيء ترك آثاره على أحاسيسه ومشاعره "كان يتمنى أن يصرخ منذ زمن بعيد، أن يقف وسط الشارع المزدحم أو في أي مكان آخر، أن يصرخ حتى تدمى حنجرته أو يسقط لسانه"[١٧] وازداد ذلك الإحساس عندما تعرف إلى ليلى، فتأججت في نفسه نار الحيرة وحالة انفصام بين رغبته في حياة جديدة وبين اغترابه لاسيما أن الأسباب التي أدت إلى اغترابه مازالت موجودة " رأى وجهه في اللوح الزجاجي، لم تكن قد تكلمت بعد، واستبشع خلقته والألم يضيف خطوطا جديدة على تكوينها، هتف في سره كنت أعلم.. كنت أعلم ما من أحد يحبني"[١٨] كان عزيز يعاني من صراع حاد في ذاته بين الرغبة والخوف، بين الماضي والحاضر وبصورة أكثر وضوحا بينه وبين المجتمع الذي فرض عليه أن ينعزل عن العالم، وبالمقابل كانت ليلى هي الأخرى تعيش اغترابا فرضه عليها المجتمع بسبب علاقة غير شرعية كانت سوزان الطفلة نتاجها، مما أفقدها الثقة بالناس وشعرت بالخوف منهم وهربت بعيدا عنهم، حتى عزيز كذبت عليه خوفا أن يتركها، وهي التي وجدت فيه تعويضا لحرمانها، ورغبة تجددت منذ أول مرة التقت به، وفي لحظة ما وثقت به وجاءت الفرصة لتختبر حبه لها، ورأت أن تصارحه بالحقيقة "لقد كذبت عليك، ليكن الصدق أساسا لنا لنبني عليه زواجنا، لم أتزوج من قبل، ولم يقتل أبو سوزان في معركة كما ذكرت لك، رأيته، أحببته، أعطيته كل شيء، ثم لما تركني، تركت بلدتي وبدأت هنا "[١٩] لقد كان اعتراف ليلى محاولة منها لإلقاء حملها الثقيل الذي كانت تحمله معها وهي تعيش حالة من الزيف

(١٣) م.ن:٢٣

(١٤) م.ن :٢٤

(١٥) م.ن:٢٤

(١٦) م.ن :٢٥

(١٧) م.ن :٢٨

(١٨) م.ن :٣٠

(١٩) م.ن :٣٣

والكذب مع الآخر(الناس وعزيز) " تمنيت وأنا ألد سوزان أن أجده، أجد رجلا بقربي يقول هذه ابنتي، أريد أن أكون صادقة، لقد مللت الكذب ياعزيز"(٢٠).

في لحظات قليلة انقلبت كل الرغبات المتوقدة في نفس عزيز إلى غضب وانتقام، وعادت به إلى لحظات الاغتراب التي عاشها، شعر وكأن كرامته قد انتهكت مرة أخرى وأن ليلى التي أحبها لم تكن خالصة له، وقد كذبت عليه، لحظات من الأنانية الذكورية حطمت كل شيء "كانت ليلى ما تزال تحكي، والبؤس كسر زجاجة النور،ملأها بالظلام، ثم أنها على ما يبدو قالت لنفسها: لن يقبلني امرأة له، بئس الصدق"(٢١)، ومع أن عزيز الذي ذاق الظلم من قبل قد انتبه إلى نفسه، إلا أن انتباهته جاءت متأخرة وكان حينها قد خسر ليلى وخسر معها ابنتها الصغيرة سوزان، ليدخل في دوامة اغتراب جديد، جعلته ينهمك في صناعة الدمى وينعزل عن المجتمع. ولكي يخرج الكاتب من فردية الثيمة وخصوصيتها عمم تجربته على فصول مختلفة بأحداثها تحمل هي الأخرى رغبات واغترابات تلتف جميعها حول الفصل الرئيس(ينبوع الحزن)، وترتبط معه عبر الدمية سوزان التي عرضها عزيز لتكون شاهدا على حبه ودليلا على ندمه، وقد تشكلت في الرواية حوارات متعددة بين سوزان الدمية وشخوص الفصول الأخرى.

الفصل الثاني من الرواية جاء بعنوان (لوتشيا والذكرى) نجد رغبات أخرى انطفأت في بداية توهجها مما شكل اغترابا واضحا للشخصية الرئيسة فيها "فلتعم الرحمة المزيفة كل القلوب، وداعا أيتها السيدة، موعدنا يوم آخر. هكذا قالت لوتشيا... لاحقت لوتشيا أفكارها الضائعة كسرب مهاجر،لم تستطع أن تلحق به، عاودت المشي بتصميم، إلى أين ياسيدة الحزن؟...لوتشيا حذاء قديم ذهبت لمعته"(٢٢).

هذه المرة أيضا لم تكن لوتشيا السبب في ما حصل لها، فقد تركتها أمها وهربت وهي فتاة صغيرة، لذا حكت للدمية قصتها في محاولة لإفراغ الذات من شحنات الحزن التي تحملها " كانت تعيش فتاة صغيرة في سعادة، حسنا، ولما فتحت أذنيها ذات مرة على بكاء أبيها يلون البيت بالحزن، كان يقول: ذهبت أمك لوتشيا، يا لوتشيا وبقينا وحيدين"(٢٣) لم تكن أمها السبب الوحيد في حزن لوتشيا واغترابها وحنقها على العالم، بل كان بكاء أبيها المقعد في الليل سببا آخر لذا أقسمت "على أن يكون في حياتها، رجل واحد، الحزين المقعد تجره الدواليب باتجاه الحائط، غرقت في أحضانه"(٢٤) وكذلك كان الناس في أحاديثهم عن أمها "قال الجيران: العاهرة

(٢٠) م.ن:٣٣

(٢١) م.ن:٣٣

(٢٢) م.ن :٣٦

(٢٣) م.ن :٣٨

(٢٤) م.ن:٣٨

هربت مع عشيقها، ودت لو صفعت فم الجيران، ركلت بطنهم"[٢٥]. ومع هذا فقد كانت رغبتها في الحياة ومساعدة والدها دافعا لها للعمل عند رجل كبير وثقت به، وفي لحظات الاطمئنان حاول أن يغدر بها لينقذها منه شاب تعرفت عليه في حفلة أقامها صاحب المحل، فتتعلق به وتولد عندها رغبة جديدة "نبت الحب، استوى غصونا وأوراقا، وبينما تتعلق لوتشيا بذراعيه، تحرك وجودها نحوه بتدفق أغنية،كان يؤنبها وكانت تكابد مشقة هائلة في أن تقول له أحببتك،ولم تفعل"[٢٦] ومع هذا لم تنس وعدها لأبيها " لن أهرب منك ياوالدي ، إنما أحبه، أحببته وكنت حذرة سنين طويلة من أن أحب"[٢٧]، كان الذي أحبته اسمه أحمد، مسلم وهي نصرانية، هو من حلب في الشام وهي من ايطاليا والمكان الذي التقيا فيه(الإسكندرية) مدينة في مصر ولم يكن ذلك عائقا بينهما "سأقرأ منذ اليوم كتابنا وسأقرأ قرآنه يحرسه ويرعاه .... سأشكر هذه الإسكندرية الكريمة ، جمعت مابين ايطاليا والشام ، أتراه يفكر بالحب كما أفكر؟ سأحرق منذ اليوم شمعتين، واحدة لك وأخرى لأحمد"[٢٨]، ومع أنها بحثت عن عمل جديد بدل عملها الذي تركته مع الرجل العجوز إلا أنها لم تشعر بالندم، "فقدت عملا وكسبت حبا، إلا أن الكفة الثانية رجحت فأصبح لرجلها قوة تحملها نحو كل الشواطئ، حتى الصخر كان في تلك اللحظات لا يدمي أقدامها"[٢٩]، وكان أحمد صادقا معها، فراح الاثنان يرسمان صورا جميلة للحب " أحمد ولوتشيا على بساط الرغبة يتقلبان، يعطيان ولا يأخذان، كان البحر ساكنا ثم تموج، كسر صخور الشاطئ، فتتها، ويتم شراعا وحيدا"[٣٠]، ومع أنها رغبات لم يشأ لها الكاتب أن تكتمل سقط أحمد قتيلا بفعل الحرب التي اشتعلت نتيجة العدوان الثلاثي على مصر، بينما كان يبحث عن دواء لأبيها المريض. إن من أنواع الاغتراب،(الاغتراب السياسي) ذلك الذي يتشكل بسبب الحروب ومآسيها تارة، أو بسبب الحصار تارة أخرى أو لأسباب أخرى، ليس للناس حيلة في إبعادها عنهم "أعلنوا الحرب ولم يأخذوا رأيي، اعتدوا علي أنا، أنا التي أعتدي عليها،قامت الحرب، ثم .."[٣١]. هكذا شكل موت أحمد اغترابا للوتشيا "مات رجل يخصني، مات أحمد، عاد البحر صافيا، والأسرى أيضا، ولم يعد رجل كان يخصني، ما يزال، كتبت أنا لوتشيا: ابتدأت من حيث انتهت، العلامات

(٢٥) م.ن:٣٨
(٢٦) م.ن :٤٣
(٢٧) م.ن :٤٤
(٢٨) م.ن:٤٤
(٢٩) م.ن :٤٥
(٣٠) م.ن :٥٠
(٣١) م.ن :٥١

الفارقة: لاشيء، أيتها الدمية الصغيرة، سيدة الحزن أنا لا أنت"[٣٢] ومع هذا اليأس الذي رسمه وليد اخلاصي إلا أنه أبقى نافذة للأمل مفتوحة عن طريق الجنين الذي تحمله لوتشيا في أحشائها من أحمد، فضلا عن أنها تحاملت على أحزانها لترضي والدها المريض كما فعلت في المرة الأولى عندما رحلت عنها أمها.

في الفصل الثالث(مسرحية قصيرة) رغبة جديدة واغتراب آخر، ليس بسبب السياسة وإنما كان بسبب العرف الذي ألقى اللوم كله على المرأة التي لا تنجب، وكذلك في الرغبة التي تتملك الأم في أن يكون لابنها ولد، فكانت الست مريم تنظر بحقد لكل من حولها وبعدائية أكبر لزوجة ابنها لكونها لم تنجب ولدا "كانت الست مريم تحدث ضجة كبيرة بينما هي تشق الطريق :
. العنزة في الجبل بتحلب مرتين بالسنة، شجرة التفاح بتعطي حمل، وابني المسكين هاني، زوجته لا تحلب ولا تعطي ... ما ذنب هاني، حبيبي وكبدي ومهجة عيني، ما ذنبه في أن لايكون له ولد؟، ما ذنب أم هاني بك في أن لايكون لها حفيد تفاخر به "[٣٣]. لقد مثل الفصل الثالث عرضا مسرحيا قصيرا، أبطاله (أم هاني، هاني وزوجته)، أم هاني التي فشلت في أن تجعل ابنها يتزوج مرة أخرى راحت تتبع سبلا أخرى كي تجعل زوجة ابنها تنجب لها ولدا، وكانت تغتاظ كثيرا كلما فشلت في سعيها "بقيت الست مريم وحيدة تتفكر بالشيخ الذي خابت وصفته، دفعت له جنيهات خمسة ثمنا لطلسم وضعته بين الملابس الداخلية للزوجة، يجعل العاقر تحبل، ذهبت الجنيهات ومديحة لم تفعل... كان عليها أن تثأر لنفسها من الشيخ المخادع، تذهب إليه وتجثم فوق صدره بأردافها حتى يكتب لها وصفة أخرى أو يموت"[٣٤].

لو كانت رغبة أم هاني مشابهة لرغبات باقي الأمهات في أسبابها ونتائجها لكان الأمر يبدو طبيعيا، غير أننا نفاجأ بوليد إخلاصي وقد أدخل لنا سببا آخر، تمثل في فشل رغبة قديمة لأم هاني في إنجاب عدد من الأولاد بسبب وفاة أبي هاني بعد ولادتها لهاني، وهي التي كانت تحلم بإنجاب ستة أولاد، فكانت تمني النفس بأن يحقق لها رغبتها ابنها هاني بعدد من الأحفاد، وهكذا شكل لها فشلها الثاني ازدواجية في التعامل مع الناس فهي تمقت الكبار وتقسو عليهم بألفاظ نابية بينما تحب الأطفال وتعاملهم برحمة وعطف، لذا نجدها تتعلق كثيرا بالدمية سوزان وتصر على شرائها بالرغم من أن البائع قد رفض بشدة بيع الدمية، لكونها للعرض فقط. "قال المدير البدين للست مريم التي بدت شاردة النظرات:

---

(٣٢) م.ن:٥١
(٣٣) م.ن :(٥٥ . ٥٦)
(٣٤) م.ن :٥٧

ـ يا سيدتي ان الدمية للعرض فقط ولا ثمن لها لأنها ليست للبيع."[٣٥] وعندما التقت مع عزيز حاولت إقناعه ببيع الدمية "ترقرقت دمعتان كبيرتان في مآقي الست مريم الواسعة، بخر الكذب بعضها وسقط الباقي في منديل حريري مشغل، هتفت العجوز بحرقة:

ـ أقول ذلك فيحاربونني، لا أحد يسمع لي، أحب الأطفال واعبدهم، أقول ذلك ولكن أين حرية الكلام، الآراء الصحيحة أصبحت خاطئة والناس يعاقبون على الأماني البسيطة"[٣٦]، ومع هذا فقد رفض عزيز بيع الدمية، وقال للعجوز "ليست للبيع، سوزان كبيرة ياسيدتي"[٣٧]، إلحاح العجوز على أخذ سوزان أشعل فتيل الذكريات في نفسه، " كل الجروح تقيحت وانتصرت ديدان الحزن، تأفعت حول عينيه، قيحت قلبه، كل قلبه، همس عزيز، الموت بطيء يهتف، يطلب مزيدا من الغناء"[٣٨]، مجموعة رغبات انتهت جميعها بالفشل، ومع هذا يتشبث الجميع بأمل يرونه بأعينهم مذبوحا، انه صراع الذات الذي لاينطفئ ولايتوقف. لقد كان لرفض عزيز بيع دميته للعجوز رد فعل عنيف جعلها ترى الجميع ضدها، " الفنان ضدها، ابنها وزوجه، الشيخ خدعها بطلاسمه المزيفة، العروسة لم تصبح لها، العالم،...

العالم ضدي .. العالم خاطئ

وارتعشت زوائدها المترهلة، عكرت الانفعالات عينيها، لن تحتمل الآن تلك العداوة، أصبح العالم كله في كفة والست مريم في كفة ، لا مجال للكفاح، ركب اليأس ظهر العجوز، أثقلها"[٣٩]، هذا اليأس جعل العجوز ترضخ مضطرة للحل الذي أوجده ابنها بتبني طفل جلبه من الملجأ رغم عدم اقتناعها بالأمر، وقد تدبر حيلة لإيهام الناس بأنه ابنه الحقيقي، " لقد تدبرنا الأمر، سنسافر في رحلة طويلة، ثم نعود، هكذا ينتهي الأمر"[٤٠].

في الفصل الرابع(القطار يسافر بعيدا) نوع آخر من الرغبات ولدت من رحم القسوة والشعور بالظلم، كانت سعاد ترى نفسها وقد وقعت ضحية التسلط والقهر وجور المجتمع والأسرة " ظلت تسمع بإذنها كلمة العجوز والدها، هذه الفتاة متبرجة فاسدة، حتى بنت الأذن سدا يرفض الهجوم الآبد. قالت الأم المريضة يوما:

---

(٣٥) م.ن :٦٤

(٣٦) م.ن :٦٧

(٣٧) م.ن :٦٨

(٣٨) م.ن :٦٩

(٣٩) م.ن :٧١

(٤٠) م.ن :٧٤

ـ سعاد، والدك أساء لنا بقسوته، لا تكرري ذلك بنعومتك"[٤١] هذه القسوة ولدت التمرد في نفس سعاد، وراحت تبحث عن الحب في مكان آخر بالتأكيد ليس أسرتها " من يعطيني الحب؟ تساءلت، الرجل العجوز الماضغ أبدا تبرجي وفسادي؟أم المرأة العليلة،ضعيفة لا تملك سوى الرجاء، من يعطيني الحب؟"[٤٢]، هذا الاغتراب الذي تعيشه سعاد خلق لها شعورا بالنقص ولد في نفسها رغبات كثيرة، نظرت إلى جمالها واغترت بشبابها فوقعت فريسة بين رغبتها في أن تكون واغترابها بسبب قسوة أسرتها عليها " أي جمال لك ياسعاد ، كنت متعة الله حين سواك فخلقك، المرآة تناديها، والعجوز من الداخل يصيح كديك متسلط، أنا رجل لا يؤكل لحمه"[٤٣]، أرادت السفر، لعبت التنس وهي ترتدي الشورت وتزعمت لجنة، وشاركت في لجان أخر، " كتبت مقالا مرة على التمرد، هذبه زميل قروي لا يلبس رباط عنق، نشرته مجلة الكلية، وكانت من أجله ضيفة حفلة كبيرة أقامتها إحدى الجمعيات لكاتب مشهور"[٤٤]، رحبت به وأشادت بكتاباته، ويتبين من خلال الحوار الذي دار بينهما أنها أرادت أن تظهر له بعض تحررها.

" . قرأت لك (الرغبة وراء ستار)، كنت رائعا فيها.

وروايتي الكبيرة(الحب في ثوب ضيق)؟، أجابت وهي تسرق بصره بلآلئها:

. كادت تخنقني، وأنت تصور لقاء المرأة والرجل في ممر المنزل الطويل.

. حقا، كان الأمر واقعيا، برزت فيه رغبات الإنسان من تحت الجلد"[٤٥]، لقد أرادت سعاد السفر بعيدا بأحلامها ورغباتها، يدفعها اغترابها الذي تعيشه في بيتها وبين أسرتها، وكذلك في مجتمعها الذي يحظر على النساء إبداء تحررهن، أرادت التمرد على التقاليد والقيود التي تمنعها من تحقيق رغبات كثيرة، بيد أنها وقعت فريسة لتلك الرغبات، بين أن تكون أو لاتكون، فكان الثمن كبيرا جدا، بعدما سلمت نفسها لشخص أعجبت به وبأفكاره ورأت فيه المنقذ الذي ستسافر معه إلى الدنيا، وهتفت في نفسها، "أنت رجل لا تشبه أبي، لا تشبه أحدا "[٤٦]، ودفعتها ثقة زائفة إلى أن تغادر بيتها، "خرجت سعاد إلى العالم، لم تأبه للوالد يصرخ، الوالدة تتأوه، لم يعد لبيت العناكب الثقيلة هيكل، بينما الشارع يستقبلها، البيت من ورائها يصغر، أصبحت الساعات انتظارا في المحطة"[٤٧]، لكنها ذهبت بأقدامها إلى وكر الذئاب " كان عليها أن تغرق في بحيرة من دموع ..

---

(٤١) م.ن :٨٠

(٤٢) م.ن:٨٠

(٤٣) م.ن :٨١

(٤٤) م.ن:٨١

(٤٥) م.ن :٨٢

(٤٦) م.ن:٨٢

(٤٧) م.ن :٨٤

ليس الماضي إلا الأسف ، ويبقى المستقبل دعوة للإخلاص "[٤٨] يقول الدكتور بول شوشار:"إنه لخطأ، إنه لعصاب حقيقي، أن نقاوم التيار وأن نغوص من أجل أن لا نموت في ماض ميت، وإنه لخطأ أيضا أن نكفر بالماضي وأن نعتقد من جراء هوس بالتغيير أن ما هو جديد أفضل"[٤٩]، لم يكن الجديد أفضل، فقد جاء بالعار والفضيحة و" وجدت نفسها بعد قليل في الشارع تتجاذبها الأرصفة، مضطربة، تصفعها لفحات الخجل، بطلة لقصة رومانتيكية سيئة، أحست بحاجة إلى البيت المتفحم، لو أن العجوز تبناها من جديد، أو أن الوالدة المريضة تستعيد قوتها فتهبها منها قليلا. لم يكن للظلام في غرفتها المربعة أي معنى، أضاء العار مرايا الجدران فوجدت نفسها في كل بقعة، لوثت المرايا، خثرت الظلام وسبحت في اللزوجة حتى الصبح "[٥٠]، هكذا كانت نهاية سعاد، دفعتها رغبة عارمة للتمرد، للتخلص من حالة البؤس والشعور بالقهر، غير أنها دخلت في دوامة مظلمة، ترتمي في أحضان الرذيلة وتمتهن الذل في كل ليلة، بعدما غدر بها الكاتب الذي أعجبت به، وحاول تقديمها للمخرج جسدا ينال منه ما يشاء، مقابل فرصة للتمثيل والشهرة " قالت سعاد لنفسها: انتهيت، إحسان لا يحبني، حولني بإمضاء إلى صديقه، تحيا الصداقة، وغدا أحول إلى المصور ثم إلى عامل الماكياج، سعاد كرة من قماش تتقاذفها الأرجل"[٥١]، وترضخ سعاد مضطرة إلى مصير لا تعرف فيه سوى الحزن والكراهية، انه منتهى الاغتراب، "لم تعد القاهرة تحب سعاد، واستقبلها البحر بسخاء، كان لها موعد مع الفن الليلي، هل تعرف الفن الليلي؟، رقصت وغنت، ما أبشع الفن!"[٥٢].

في الفصل الأخير من الرواية(حفلة التتويج) يعود عزيز إلى مسرح الأحداث باغترابه الذي تلون بحزن البحث عن ليلى والطفلة سوزان، رافضا عالم الدمى الذي اختاره سجنا له "وقف يتأمل ما صنعت يداه، تبت! لا يستطيع أن يسمي هذا اليوم، هو زمن ميت يتكدس، يمهد لفراغ جديد، الناس يقبلون على ألعابه، وسوزان مطلوبة، وهو في الكوخ العالي يبقر وجوده، لن ينتهي، هو الملل،"[٥٣]، ووقف أمام جنوده، يهبهم الحرية التي تجمدت مع تجمد عروقهم، وألقى فيهم خطبة رسمت صورة واضحة للاغتراب الذي يشعر به عزيز "إنني عزيز الطفل الوحيد الذي نما بسرعة فيل، أهبكم الحرية، ليسرح الجنود وليعد التلاميذ إلى المدارس، لتكبر البنات المرحات، وتذهب الراقصات إلى بلادهن ويبحر الأسكيمو في المياه الدافئة، ليتراجع كل رضيع إلى رحم

---

(٤٨) م.ن :٨٦

(٤٩) قوة الرغبة وحكمتها،د.بول شوشار، ترجمة : محمد أحمد إبراهيم،١٢٤

(٥٠) م.ن :٩٠

(٥١) م.ن :٩٦

(٥٢) م.ن:٩٦

(٥٣) م.ن :١٠٢

أمه، وتفقد الأمهات قلوبها، ليهرب الرجال من الحقل، أنتم أحرار، وأنا كذلك، الوداع أيها العالم المتخم بالشعر الهرم، تحية للملك الخائب"[٥٤] ويخرج عزيز للعالم من جديد للرغبات، يبحث عن أصدقائه القدامى، عن الماضي، ويلتقي بصياد يبحث عن مشتر لسمكه فيسأله عزيز "سمك ميت؟...هتف الصياد بغضب، وكان قد فقد أعصابه لتدخل الغريب

السمك لا يموت

. ومن لا يموت؟

السمك... السمك أيها السيد إما في البحر أو في السلة، يبقى سمكا" [٥٥]

ويعثر على أحد أصدقائه (صلاح) وهو أديب فيعرض عليه عملا مشتركا يجعل الدمى التي يصنعها عزيز تتحرك "لو أن لعبك تحركها قصائدي!، عزيز فكر لحظة ثم قال صامتا: سخافة وما الفائدة؟"[٥٦] كان طلب صلاح سببه البحث عن المتعة، بينما كان عزيز بعيدا جدا عنها، ومع هذا فقد وافق بعدما استيقظ اغترابه على رغبة فتاة صغيرة بعمر سوزان كانت تبيع اليانصيب لتشتري الثوب الذي ترتديه الدمية، ومع أن النقود التي جمعتها لم تكن كافية فقد اشترى عزيز الثوب للفتاة، ورأى سعادة الأطفال طريقا آخر للخروج إلى الدنيا يدفعه إلى ذلك إلحاح صديقه، " بينما الصغيرة تطير بثوبها غير مصدقة، كان عزيز يلوح لها بذراعه، قال صلاح: تصور الوفاء من الأطفال يضحكون من الأعماق، أتخيلهم من كل بيت يهرعون مشاغبين صخابين، ونحن نحرك الدمى لهم، تفلت من ألسنتها أحاديث الحكمة والشجاعة والمحبة، حتى الكبار ألا تعتقد أنهم سيشاهدون الدمى"[٥٧]، وافق عزيز لكي يحيي رغبة قديمة تتجدد مع كل طرقة باب وعلى أمل أن ترى العرض ليلى وابنتها سوزان، وفي نهاية النهار يغمض عيونا فقدت النوم، ومن ثم ينهض كعادته، فقد " سمع صوتا مصدره الخشب، كأن أحدا نقر الباب، سحبته ذراعه المتعبة حواليه تتطلع في لهفة إلى الطارق، كان الفجر يلمع في الزقاق، يتمدد كالقط على السلم، عيونه تتفتح على الحوائط وأحجار الطريق وفي كل مكان، نظر عزيز، ظل ينظر طويلا، هرب الفجر وبدأ يوم جديد"[٥٨].

الخاتمة :

(٥٤) م.ن :١٠٣

(٥٥) م.ن :(١٠٤ . ١٠٥)

(٥٦) م.ن :١١٤

(٥٧) م.ن :١١٦

(٥٨) م ن: ١١٧

شكلت رواية شتاء البحر اليابس مجموعة من الرغبات والإغترابات، جسد فيها وليد اخلاصي صورا عديدة لمجتمع ساير أحداثا وتغيرات كبيرة، ألقت بظلالها على فكر الكاتب، فراح يحاكي الذات وما يعتمل بداخلها من هواجس واضطرابات عاطفية أوقعتها في حيرة من أمرها وصراع بين أن تكون أو لا تكون، أن تحب أو تكره، أن تعيش أو تموت، ولم تكن أطراف الصراع تمثل مجرد سبب ونتيجة، إذ أن السبب ينتهي بحصول النتيجة، والنتيجة تختفي بزوال السبب، ولكن إشكالية الأمر تكمن في بقاء الاثنين معا في النفس الواحدة، أن تعيش الذات اغترابا حادا وفي الوقت ذاته تبحث عن رغبة جديدة في الحياة، وفي خضم الصراع بين الاثنين تختفي ملامح من كان سببا ومن كان نتيجة، فالاثنان (سبب) والاثنان (نتيجة).

لقد تغايرت الرغبات من فصل إلى آخر، وتباينت درجات الاغتراب فيها، لكنها في مجملها تعبر عن حالات قلق واضطراب لذات مهادنة تميل إلى الاستسلام تارة، وإلى التشبث بالأمل تارة أخرى مع بعض التمرد الذي ينتهي عادة بالفشل، ومع هذا فقد حددت هذه الحالات نظرة الذات الكاتبة للمجتمع، وهي تحاول إيصال صوتها للآخر الذي كان سببا مباشرا في تعاستها، وقد جاء تشكيل هذه الرغبات والاغترابات، وفق ترتيب ثابت، يعرض حالة اغتراب ومن ثم يعود إلى سببها ، الذي هو رغبة وجدت طريقها إلى الفشل، ومن خلال سياق القصة نجد أن هذه الرغبة تشكلت هي الأخرى من اغتراب قديم بسبب فشل رغبة قديمة،وهكذا نجد أن هاتين الثيمتين قد شكلتا سلسلة عنقودية من الرغبات والاغترابات، كما أنها جاءت على طريقتين:

الأولى : في تغاير الثيمتين في الرواية بشكل عام عبر فصولها الخمسة، وكان الجامع لها الفصل الأول (ينبوع الحزن) عبر شخصياته عزيز وليلى وسوزان والدمى وكذلك الفصل الأخير (حفلة التتويج)، والتي يعود فيها الحدث ليصور لنا عزيزا والدمى مرة أخرى.

الثانية: وهنا كان التغاير في الفصل الواحد بواقع(رغبة + اغتراب + رغبة قديمة + اغتراب قديم).

المصادر والمراجع

١. بنية القصيدة العربية المعاصرة: ، د.خليل الموسى ، منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق . سوريا ، ٢٠٠٣ .

٢. ثنائية المكان . الاغتراب في أدب الرواقصصي يحيى الطاهر عبد الله، محمد ذنون الصائغ، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة . الإمارات ،٢٠٠٤

٣. حكايات الهدهد وروايات أخرى، وليد إخلاصي، دار عطية،حلب ،ط ١،١٩٨٤

٤. الرغبة واستراتيجية تبديد القلق ... محمد رمصيص (انترنيت) www. ofoug. Com

٥. قوة الرغبة وحكمتها،د.بول شوشار، ترجمة، محمد أحمد إبراهيم، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠١.

٦. مدخل إلى علم النفس، لندال دافيدوف، ترجمة د.سيد الطواب وآخرون، ط٣،منشورات مكتبة التحرير، القاهرة،(د.ت)

٧. المعجم الموسوعي في علم النفس،نوربير سيلامي وآخرون، ترجمة: وجيه أسعد، الجزء الثالث، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠١ .

٨. الموسوعة الفلسفية العربية، معن زيادة ط١،المجلد الأول، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦.